

القضاء البريطاني

في القرون الوسطى

اعظم مأساة تاريخية

كانت القرون الوسطى في أوروبا ساحة للحروب وميداناً لسفك الدماء ، وكان القضاء فيها تحت سيطرة العروش لانه كان للملك القول الفصل في الاحكام وكان التعصب الديني آخذاً مأخذه من النفوس وكان الدين وسيلة لاثارة كثير من الحروب وتحليل ارتكاب الموبقات مع ان الدين براء من ذلك ؛ وقد ذكر التاريخ كثيراً من فظائع ديوان التفتيش وما كان يرتكبه قضائه اندفاعاً مع التعصب الاعمى وارضاء لنفوسهم الخبيثة التي كانت لا تستأنس الا باهراق الدماء .

ولست غايتنا الان بسط احدى حوادث ذلك الديوان الهائل ، فان هذه الحوادث مع شدة استفظاعنا اياها لا تذكر الى جنب تلك المأساة العظمى التاريخية التي لم يكن بطلها ديوان التفتيش الذي اشتهر بالفظائع والمظالم وانما كانت هيئة قضائية لم يكن التعصب الديني المعقولات "تزع على احكامها" لو لم يسيطر عليها رأس متوج تلك هي المأساة التي جرت ايام حكم الملكة اليبابات ابنة الملك هنري الثامن الذي اشتهر بظقاعة ما استحل ارتكابه من الجرائم هذه الملكة الانكليزية . وتقومير الحادثة هي ان الملكة ماري ستيوارت، ملكة فرنسا وايقوسيا وحفيدة هنري الثامن ، التبعأت الى الملكة فرييتها هارباً من اخيها موري الذي كان ينازعها الحكم ، بدعوة منها ، وما كادت تظاً قدما ماري ارض انكلترا ، حتى حجزت عليها في احد القصور النائية

بعد ان كانت وعدتها بالمساعدة الفعلية واعادتها الى عرشها المغتصب ، الى ان حانت لها الفرصة فالقت بها بين ايدي القضاء الانكليزي الذي كانت تديره كما تشاء متهمه اياها بتهمة قد حبكت حبالها بمساعدة بعض رجالها الناقبين على تلك الملكة التاسعة . وقد حوكت وحكم عليها بالاعدام دون ما نظر الى عدم ثبوت التهمة والى عدم الاستناد على ما يوجب ذلك الحكم الرهيب ، حتى ان السر ولتر سكوت وهو احد رجالات انكلترا الاحرار ، قال في ذلك ما يلي وكان قوله اظهر برهان على خروج القضاء البريطاني عن جادة العدل يومئذ ، قال :

« لم يكن في الادلة التي جمعت لاتهم ماري ملكة ايقوسيا ما يكفي لاعدام احط المجرمين ، ولكنه كان للهيئة القضائية من القسوة والندالة رغم ذلك ما اعتبرت معه الملكة ماري ستيورات مجرمة ، والاغرب ان البرلمان الانكليزي صادق على ذلك الحكم الظالم » : اهـ .

فمن ذلك يستدل على ما كان لتلك المآسات التاريخية القضائية من الصدى السيئ حتى في قلب الانكليز انفسهم ، ولذا اخترناها دون غيرها من المآسي التاريخية لبري القراء بماذا كان يدافع الملوكة عن عروشهم متخذين القضاء آلة ينفذون بها ما يريدون والدين وسيلة يهيجون بها سخط الشعب وحنقه على من حكموا عليه مقدما بالموت .

وقد ذكر بعض المؤرخين ، تبرئة للملكة اليبابات او تخفيفا لجرمها التاريخي ان السبب الذي دفعها الي طلب اعدام فريتها هو حبها للعرش الانكليزي البروتستانتي وخوفها من ان ينتقل بالارث ، لانه لم يكن لها خلف للملك ، الي الملكة ماري الكاثوليكية التي لاحق فيه بصفتها حفيدة هنري الثامن ، او لخوفها من ان تقوم بمساعدة فرنسا او اسبانيا فتغصبها اياه وتعيد الكشلكة الي العرش الانكليزي ، ولكن مهما اجتهد المؤرخون في ايجاد عذر للملكة اليبابات فانهم لن يحجوا عن القضاء الانكليزي

تلك الوصمة التي لصقت به ولن يزيلوا اثر دماء الجريمة عن درجات الدرش التي ستظل بقعة سودا في تاريخ تلك الملكة الداهية والتي لم يدفعها اليها غير تعصبا للمعقوت وغيرها النسائية الذميمة .

الحجر على الملكة : التجأت الملكة ماري الي قريبتها الملكة اليصابات بدعوة منها هاربة من اخيها فكانت كمن يستجير من الرمضاء بالنار ، وقد استندت اليصابات في الحجر على ضيقتها الي وجوب اثبات براءتها من التهمة التي عزيت اليها وهي التسبب بقتل زوجها وابن عمها اللورد دارنلي ، وفي الوقت نفسه كانت تتظاهر لماري بانها لا تزال على وعددها لها باسترجاع عرشها من اخيها واعادتها اليه كيما كانت نتيجة المحاكمة !

وقد اعلنتها ذلك دون ان تسمح بمقابلتها ، واخذت تحتهد منذ ذلك اليوم في حبك الجبائل ونصب الشراك للايقاع بملك المنكودة التي كان مجبوراً عليها في قصر « شفيلد » حيث قضت خمسة عشر عاماً في ذل الامر » .

وشكلت اليصابات لجنة للتحقيق في التهمة المعزوة الي ماري كان اعضاؤها الدوق اوف نورفولك والكونت دي مسكس والسرالف سدلواخذ اخوها موري على عاتقه مهمة النائب العام . وبالرغم عن ان اللجنة اتت الحكم في القضية لانعدام الادلة التي تثبت ادانة ماري فان اليصابات لم تقم بوعدها الذي سبق من ارجاع ماري الي عرشها بل تركتها في معجزها مترقية الفرض للفتك بها .

وكان لماري في باريس ورومية ومادريد انصار عديدون يعملون على اعادتها الي عرشها بينما كان الكاثوليك في انكلترا نفسها عدا ايقوسيا يعلقون آمالاً جساماً عليها فبال ذلك اليصابات خصوصاً بعد ان اكتشفت مؤامرة دبرها الدوق اوف نورفولك لانتقاد ماري ومساعدتها ، فخشيت مغبة ذلك واخذت تفع الخطط لتتهم ماري بتهمة التآمر على حياتها .

ودفعت البرلماني الانكليزي بعد ان اعدمت الدوق نورفولك الى اصدار قانون ظالم يقضي بأعدام كل من ثبت عليه التآمر على حياة الملكة وكل من تعود تلك المؤامرات الى صالحهم اذا كانوا على علم بها ، ثم عهدت الى وزيرها والسنجهام ان يدير شهمة نوخذ ماري بها .

تدبير الشهمة : فلم يتوان والسنجهام في العمل بأرادة ملكته ، واهتم منذ ذلك اليوم بالمهمة التي عهدت بها اليه يساعده بعض الانصار الذين باعوا ضمائرهم ومنهم المدعو جريجوري الذي كان ماهراً في فن الرسائل وفك الاختتام والخطوط السرية والتزوير ، واخذ يشدد في مراقبة الملكة ماري بعد ان دبر حيله تقع فيها الرسائل الواردة باسمها والصادرة منها في يده قبل ان تصل لاسمائها ، واخذ يتربص وتوقع رسالة منها الى انصارها او منهم اليها فيتخذها سلاحاً يشهر ضدها ، فمرت الايام دون ان يفوز بطائل .

واتفق ان كتبت ماري مرة رسالة بسيطة الى رجل من انصارها يدعي بابنجتون لم تذكر فيها شيئاً ، ولكن جواب بابنجتون عليها كان مطولاً فصل فيه كافة ما يبذله انصارها من اجلها وشرح كافة المؤامرات التي يدبرونها ضد اليصابات .

وقد وقع الخطاب في يد والسنجهام طبعاً ، فاحاله هذا الى جريجوري الذي قض ختمه بما اشتهر عنه من البراعة ، وبعد ان نسخه اعاده الى غلافه وارجع الختم الى حاله واوصله الى الملكة ماري . وبذلك كان لليصابات مارجتة من ايقاع نسيبتها في الشرك الذي نصبته لها بواسطته .

واجابت ماري على كتاب بابنجتون ، فرأى والسنجهام ان كل ما يرجوه وترجوه ملكته من وضع ذلك القانون قد تم ، فاشار الى جريجوري باستنساخ رسالة ماري وزيادة ما يمكن ان يكون كافياً لاستصدار الحكم عليها بالاعدام عملاً بالقانون الجديد ، وبذلك ابتدأ الدور الرهيب في هذه القضية .

القبض على ماري : وفي أكتوبر عام ١٥٨٦ أصدرت البصابت امرها بالقبض على ملكة ابقوسيا فنفذ حالاً ، وكان بابنجتون قد حوكم مع شركائه دون ان يواجه بالملكة ماري وقضى وایام شہید التعذيب الخيف دون ان يفوه بكلمة تدل على ان لماري يد في المؤامرة ، وكانوا قد فتشوا قصرها تفشياً دقيقاً دون ان يعثروا على ما يؤيد التهمة ضدها ، ومن ثم أصدرت البصابت امرها بتشكيل هيئة لمحكمة ماري .

وقد رفضت ماري الامتثال لأمر البصابت بالثول امام الهيئة لمحاکمتها واحتجت على ذلك احتجاجاً شديداً قائلة انها ملكة اجنبية لا تعترف بالقضاء الانكليزي ولا بالهيئة التي شكلت لمحاکمتها كما انها لا تخضع لأوامر ملكة تمت اليها بقرابة وتعاد لها في المرتبة ، ولكن احتجاجها لم يفدها شيئاً وابلغتها البصابت انها اذا لم تقبل بالثول امام الهيئة حوكت غيابياً بموجب القانون وحكم عليها .

فلم تجد ماري حينئذ بداً من المثول لدى الهيئة مدافعة عن نفسها خشية ان يصدر الحكم بحقها غيابياً . ولكنها لم تتردد في الاحتجاج ثانية امام الهيئة لمحاکمتها وهي ملكة اجنبية لا تنبر القانون الانكليزي ولا يجب ان يسري عليها خصوصاً وان للقضاة دينا يخالف دينها .

المحاكمة : ولكن الهيئة لم تسمع لها . واخذت في محاكمتها بتهمة المؤامرة على حياة الملكة مستندة في ذلك الى خطابات زعمت انها تبودلت بين ماري و بابنجتون . فسخرت ماري من هذه المدعىات ، وطلبت الاطلاع على تلك الخطابات فاذا بها صوراً عنها فقط ، ولما طالبت بالنسخ الاصلية وعجزت الهيئة عن تقديمها لانها لا تملك سوى تلك الصور التي لعبت بها يد جريجوري المزورة حسب مشيئة البصابت ، وصاحت قائلة :

— انني انكر انني تبادلتي مثل تلك الخطابات ، او انني كاتبتي بابنجتون .

ولما اشار المدعى العام الى سعادتها مع سفراء فرنسا ورومية واسبانيا ومراسلتها السرية لهم قالت:

— انني لانكر مراسلتي للامراء الاجانب ، فانه يحق لي ذلك كملكة اجنبية اسعى الى استعادة حربي . اما انني تأمرت على حياة الیصابات وكاتب بانبجتون فهذا ما انكره كل الانكار .

وكانوا قد قرأوا عليها اعترافين من امينيتها زعموا انها صدرا منها وذيلهما بتوقيعها وفيهما يتهمانها بالتآمر على حياة الملكة . فطلبت مواجبتها قائلة :

— لقد زعمتم قبلا ان بانبجتون وشركاه شهدوا ضدي وقرأتم علي اعترافا قلتم انه صدر من بانبجتون قبل موته ، وقد قتلتم ذلك الرجل مع شركائه مما لم يعد بالامكان . مواجبتني بهم فلماذا لا تواجهوني بأميني عملا بقانونكم نفسه الذي ينص على الا يحكم بأدانة احد يتهم بالتآمر على حياة الملك مالم يواجه بشاهدين يشهدان امامه ويحلفان اليمين ؟ وما هذه المهذلة القضائية التي تمثلونها ؟

وقد انقضت الجلسة على ان تعقد في اليوم التالي بعد ان دافعت ماري عن نفسها خير دفاع و بعد ان ساد المرح وعلى الضجيج في قاعة المحكمة .

وعادت ماري في صباح اليوم التالي الى استئناف دفاعها قائلة :

— لقد استخدمتم كل ضروب العنف والجور في تنظيم هذه المحاكمة ، فانا احتج بشدة على هذا الاسلوب المخزي الذي تسير عليه محاكمتي ، واطلب ان تسمع اقوالي نانا امام الملكة الیصابات نفسها التي تأتي مواجبتني منذ خمسة عشر عاما وامام البرلمان . منعقد بكامل هيئته .

لقد قاسيت كثيرا من ضروب الاهانة والعسف وغلّتم حرية دفاعي بما لم يسمع به قبلا ، انكم تبعون خطة لا يقركم الله عليها ولا الشريعة .

ولما اخذ بيركلي رئيس الهيئة القضائية بقاطعها متحيزاً ضدها صرخت بغليظة:

— يظهر انني لست احاكم بل حكم علي مقدماً . وقد تقرر اعدامي منذ زمن طويل لان حياتي تترك للكتوليك محالاً للامل في استرداد حريتهم الدينية . اما انت فانك عدو لي .

وبعد اخذ ورد بين هذه الملكة الناعمة وبين قضاتها بل جلاديتها الذين كانت كل اقوالهم وحرركاتهم تدل دلالة صريحة على التحيز ضدها ختمت المناقشة واختلت القضاة للمذاكرة . وفي تلك الاثناء وصل رسول من قبل الملكة يطلب باسمها تأجيل اصدار الحكم لتطالع اوراق القضية بنفسها . فاجل الى عشرة ايام .

الحكم بالاعدام : كان ذلك في ١٥ اكتوبر ، فسفي الخامس والعشرين منه عادت الهيئة فالتأمت في بهو وستمنستر وسمعت اقوال اميني الملكة ماري الذين لم يعترفوا آتذنبشي ضدها وقد كان ذلك بغيا بها ولنا ندري افعول ذلك خصصاً ام اتفاقاً ! ولكن الذي نعلمه وبقوه التاريخ هو ان الملكة ماري « المتضمة » لم تواجه باليهود كما يقضي قانون البلاد ! .

وبعد اخذ اقوال اليهود اصدار الاعضاء الحاضرون ، وكان عددهم ستة وثلاثين عضواً ، حكمهم بالاجراء باعدام ماري ، مما يدل على ان هذا الحكم كان مقررأ من قبل هو ان الاثني عشر العضو البائس — وقد كانوا غائبين عن الجلسة — وافقوا كتابة على ذلك الحكم .

وهكذا صدر الحكم باعدام ماري ستيوارت ملكة فرنسا وايقوسيا لا لذنوب اقترفته سوى كونها حفيدة هري الثامن وذات حق في العرش الانكليزي كاثوليكية .

السعي لاغتيال ماري في السجن : صدر الحكم ولكن تنفيذه لم يكن بالامر الهين الممكن احراؤه ، فقد كانت البصائبات تفسى ان يفضي ذلك الى تدخل فرنسا او اسبانيا او ايقوسيا ، فاخذت تهرص بعدوتها الدوائر لتوقع بها غيلة دون ان تتعرض

لاي مسؤولية . فشعرت ماري بذلك وكتبت الى قريبها هنري دي لورين والمعروف باسم الدوق دي كيز تقول له انها تتوقع الموت بالسهم او بطريقة اخرى مريبة .
وبعد ان صرت الاسابيع على صدور الحكم ، قدم المستر دافيسون الامر بالتنفيذ الى البصابات فلم تتأخر لحظة عن توقيعه ولكنها قالت له : كم اكون سعيدة لو جعل احد رعاياي المخلصين امر التنفيذ شيئاً لاضرورة له . . .

ففهم دافيسون غايتها ونقل ارادتها الى والسنجهام بطل هذه الحادثة ، فكتبت الاثنان الى السرايمياس بدعوانه بلسان الملكة الى اغتيال ماري وهي في سجنها بطريقة مريبة ، ولكن السرايمياس ابنى قائلاً :

— انني لا ارتكب جرمًا بأباه الله وينكره القانون .

فلم يجهد دافيسون عندئذ ، وقد صادقت الملكة البصابات على تنفيذ الحكم ، بدأ من تنفيذه ، فقدم الامر بذلك الى الكونت شرهزبوري الذي عليه بصفته القائد الاكبر ان يحضر التنفيذ والى الكونت «اوف كنت» عاهدًا اليهما ابلاغه الى الملكة ماري .

قبليغ الحكم : وكانت تلك الضحية مريضة ملازمة سريرها حين زارها ذاك الرجلان وقرأاً عليها صيغة الامر العالي ، ولكنه لم يبد ايها شي من التأثر وتلفظت بكلمات دلت على انها سعيدة بهذا الحكم الذي دبره الله لينقذها من حياة هي سلسلة من المصائب والاحزان سببها لها اعداؤها . ولما اطلعها الكونت شرهزبوري بصوت متلعم على ان تنفيذ الحكم سيكون الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي . احتجت على ان هذا التأخير في ابلاغها الامر ، وطلبت ورقاً لتكتب وصيتها .

وقضت ماري ساعات طوال في كتابة وصيتها التي عهدت بتنفيذها الى قريبها الدوق دي كيز وفي تدبير شؤونها وتوزيع حليها ومتاعها على افراد حاشيتها كتذكاري منها لهم ، حتى اذا تمت كل ذلك تمددت في سريرها بأجل ثيابها واخذت تصلي

بحرارة وخشوع واتباعها من حولها يذرفون الدموع ، حتى الصباح .
 في ٨ فبراير سنة ١٥٨٧ : وقبل بزوغ الفجر ، وكان ذلك صباح ٨ فبراير سنة
 ١٥٨٧ ، غص القصر بالجنود الذين جاؤوا لاقتياد ماري الى ساحة الاعدام ،
 فسارت معهم يتبعها حشمها الذين استأذنت لهم بموافقتها .
 وسارت بين جلاديه كشهيدة بارة وليس كمتهمه تساق الى حيث تجازى على
 ما ارتكبته ، وهناك ، بعد اتمام الاجراءات القانونية ، دفن الكاهن منها واخذ يعظها
 بعنف وقسوة ، فافهمته انها بغني عن عظته واشارت اليه ان يتنحي ، وهكذا اتبعوها
 بالارهاق والعسف حتى ساحة الاعدام !

وبعد صلاة قصيرة ، اشارة الى وصيبتها ان تساعد على خلع بعض ثيابها تسهلا
 لتنفيذ الاعدام . معنية الجلاد من ذلك ففعلت بين صمت الحضور وحزنهم العميق .
 وقد بكى الشعب كثيراً حين رآها تصلي بخشوع وحرارة .
 ولما كانت الثقاليد تقضي بأعدام النبلاء بالسيف دهشت ماري كثيراً حين رأت جلادها
 يقودها الى النطع ليقطع رأسها بالفأس ، ولكنها لم تبد اي ممانعة بل جثت عند النطع
 واسلمت رأسها للجلاد وهي تصلي دائماً .
 وكانت الساعة الرهيبة !

فقد اشهر الجلاد فأسه ورفع الكونت شروزبوري يده بعصاه القصيرة مؤذناً
 بالتنفيذ وقد حول وجهه نائراً .
 وهوى الجلاد بفأسه على عنق الملكة ماري ستيوارت ، ملكة فرنسا وايقوسيا
 وحفيدة هنري الثامن وورثة عرش انجلترا ، بين زفريات الحضور وحسراتهم والمهم
 العميق ، فلم يفصل الرأس الا بعد الضربة الثالثة !
 وبينما كان الجلاد يرفع يده بالرأس الملتطخ بالدماء ، كان مساعده يحجب الجثة
 بستر ابيض كان كنفها الوحيد .

وكانت تلك المدكة المنكودة ، قد طلبت من البصابت في ساعتها الاخيرة ان تأذن بدفن جثتها في ارض فرنسا ، ولكن البصابت رفضت ذلك . وهكذا اعدمت ماري استيوارت دون ان يسمح بتنفيذ ارادتها الاخيرة ، وهكذا تمت تلك الفاجعة التي هي اعظم مأساة قضائية عرفها التاريخ !

في تعيين السن

يجب ان لا يعتمد سبب تقرير السن على الجثة او الهبشة ولا على تقرير الطبيب لانه ليس من الوثائق المعتبرة في هذا الشأن في (٩ شعبان سنة ١٢٩٨ و ٢٢ كانون الاول سنة ١٣٠٧ دائرة الجزاء) واقوى حجة لتعيين السن فيود دائرة النفوس لانها من الوثائق المعتبرة حتى يثبت بطلانها (في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٢٩٩ و ٥ شباط سنة ١٣٠٧) ولكن اذا كان السن المبين في تذكرة النفوس لا يتفق مع ظاهر الحال فيجوز حينئذ الفحص عن الحقيقه ضمن الاصول . وكوب تذكرة النفوس معدودة من الاوراق الرسمية لا يمنع في مثل هذه الاحوال من الفحص (في ٢٧ مايس سنة ١٣٢٨ . عدد ١٥٦ دائرة الاستدعاء)

لا يعتد بتصديق المدعى الشخصي المتهم في تعيين السن (١ كانون الاول سنة ١٣٠٢) ولكن اذا تعذر تعيين السن فتعتبر افادة المتهم (٢١ اغستوس سنة ١٣٠١ و ٢٢ كانون الاول سنة ١٣٠٧) كما ان تعين المتهم سنه لدى دائرة الاستئناف لا يمنعه من الادعاء لدى المحكمه بخلافه (في ٥ شباط سنة ١٣٠٧) . كما انه لو حصل تباین بين اقرار المتهم والقيد الرسمي فيجب الفحص والتدقيق ولو كان المتهم اقر بان سنه اكثر مما هو مقيّد في تذكرة النفوس ، تتعلق ذلك بالحقوق العمومية (٧ شباط سنة ١٣٣٠ . عدد ٤٦٥ دائرة الجزاء)